« لا » ...

عن صعوبة الاحتجاج وضرورته في القرن العشرين

بقلم الدكتور عبد الغفار مكاوي

هل هناك اسهل من قول لا ؟

كلمة صغيرة ، نقولها حين نصبح وحين نمسي .. وقد نوفر على انفسنا مشقة النطق بها ، فنكتفي بهز الرؤوس .

حرفان صغيران، نسرع اليهما حين ننفي ، أو نرفض ، أو نحتج، او نرد على سؤال من يسأل فنؤكد له أننا لا نعرف ، أو نقطع بعدم معرفته فنمهد للجواب الصحيح .

لا ونعم . حرفان يقتسمان وجودنا وتدور حولهما حياتنا وتفكيرنا. في كل ما نقول ونفعل لا بد لنا ان ننجذب لاحد هذين القطبين ، او ندور في احدى هاتين الدائرتين .

حرفان لا يبدو ان هناك ما هو ايسر منهما ، ننطق بهما مع كل سؤال وجواب ، ومع ذلك فما اكثر ما يرتبط بهما من صعوبات !

لنقصر حديثنا على الحرف الذي وضعناه عنوانا لهذه السطور .

« اللا » هي صيغة الاحتجاج . ففي عالم يعطى لنا من الصباح الى المساء اكثر من مناسبة للاحتجاج ، يصبح من حقنا ان نبحث عن طبيعة هذه الكلمة .

قد يبدو لاول وهلة انه ليس هناك ما هو ايسر ولا أعم من قول « لا » . انها تكاد تتردد على اللسان في كل ما نقول وما لا نقول، حتى يخيل الينا انها فارغة من كل مضمون . انها تستطيع ان تخالف كل شيء وتوافق على كل شيء ، وتستطيع بنفس القوة أن تنفي وتثبت ، وتعارض وتؤكد .

وقد يبدو انها اكثر كلمات اللغة بعدا عن الاستقلال بنفسها. فهي تفترض سؤالا يسبقها ، بل هي جواب النفي على هذا السؤال . فالذي يسأل يريد ان يعرف . وحين نجيب على سؤاله « بلا » فاننا نخنق معرفته الباطلة في مهدها ، ونمهد بالنفي لمعرفة صحيحة او نعتقد انها صحيحة . وقد يبدو انه ليس هناك ما هو اخطر من قول « لا » . فاذا كانت اللا هي صيغة الاحتجاج ، فقد تكون كذلك هي صيغة الانهزام. فمن يصر عليها في كل ما يقول او يفعل ، يصر على رفض كل شيء . ومن يرفض كل شيء يهرب من كل شيء . ويكون الموقف المنطقي الوحيد الذي بقي له هو الهروب من الحياة كلها .. ذلك لانه لا يرفض حينئذ نظاما بعينه ، بل يرفض كل نظام ، ولا ينفي موقفا بذاته ، بل ينفي كل موقف . وهذا الرفض العنيد ، هذا النفي المتصل الذي لا يؤدي الى تأييد شيء او الموافقة على شيء ، هو الفوضى بعينها . وما اسهل أن يقول الانسان لا . ولكن ما اضيعها ان لم تحاول ان تثبت وراءها حقيقة ، أو تؤكد قيمة ، او تدافع عن « نعم » ..

وما اخطر أن يقول الانسان « لا » ، خاصة اذا وجد المجتمع الذي يحرم هذه « اللا » ، لا بل يقمعها ويوقع عليها العقاب الشديد . ولكن ما اشبهها بالصدى الضائع في الصحراء ، اذا كانت تعبر عن تمرد يكتفي بالنفي دون أن يحاول الاثبات ، ويقنع بالاعتراض على الباطل دون ان ينادي بتأكيد الحق .

لكن هل يقف المفكر في « اللا » عند الصعوبات الخارجية التي تصادفه ، وهي صعوبات تدخل في مجال السياسة ، والاجتماع ، والقانون ؟ أن المفكر الحقيقي يهتم قبل كل شيء بالماهية والطبيعة والجوهر . فهل يقربه من حقيقة « اللا » أن نصفها بأنها صيغة الاحتجاج ، ام تراها تبعده عنها ؟ أليس في لفظ « لا » نفسه تحديد لجانب واحد من الوجود ، بينما المفكر او لنقل الفيلسوف يتجه بفكره الى كل الوجود ؟

ان كلمة « لا » تحد وتحدد . أليس في هذا شيء من العزاء لمن يريد أن يصل الى قلب الوجود، ويطأ خاشعا قدس اقداسه ؟ الا تستطيع ان تسد الطريق على كل جواب سهل في مسألة المسائل هذه، وان تسكت كل « نعم » يسيرة وسطحية ومؤقتة تزعم انها تنبئنا بشيء عن الوجود ؟ الا يستطيع قائل « لا » ان يكون حارسا امينا على الوجود فيبدأ بحراسة نفسه من عواقب « لا » تحتج وحسب ، ولا تجلب على نفسها غير الخراب ؟

مهما يكن من شيء فان قول لا تعبير عن احتجاج . وفي عالم يعطي لنا من الصباح الى المساء اكثر من مناسبة للاحتجاج ، يصبح من حقنا ان نبحث عن طبيعة هذه « اللا » . والبحث هنا ضرورة لنعرف كيف نقولها ومتى ولمن ، ولنضمن ألا تكون مجرد صرخة نبيلة في الهواء، او كتابة بالدم على سطح الماء !

***

لنفكر معا في امر هذه « اللا » ...

ولكننا قبل ان نبدأ التفكير فيها ، سنجد انفسنا مضطرين الى التفكير في الفكر نفسه ! والفكر عادة يسير خطوة فخطوة ، على حسب منهج مرسوم . وهو يصطدم باول عقبة على هذا الطريق ، حين يسأل نفسه في أي شيء يفكر . فهو يجرب هذا وذاك ، وينظر هنا وهناك ، ويسير على طريق قد يعدل عنه بعد قليل ليسير على طريق سواه. حقا ان فيلسوفا يونانيا قديما هو « بارمنيدز » ، قد عرف طريقين لا ثالث لهما : طريق الحقيقة الذي يسير فيه العارف ولا يسير على طريق غيره حتى يصل الى الوجود الواحد ، وطريق الباطل الذي يسير فيه الجاهل او تسير فيه العامة « المزدوجة الرؤوس » ليؤدي بها الى اللاوجود . فالطريق الاول هو الطريق الذي لا طريق سواه ، وفي اخره سنجد الوجود الواحد الذي لا يتبدل ، الوجود الكروي الشكل، المحدود بحدود ثابتة . ان العارف يسير عليه ، ويعرف كلمة السر التي توصل اليه ، اما العامة « الاغبياء » كما يسميهم فهم يجهلون هذه الكلمة ، ويترنحون حائرين بين الطريقين . ذلك لانهم يجهلون هذه الكلمة القاطعة التي قالها فيلسوفنا احتجاجا على اللاوجود وتأكيدا للوجود الحي . « اللاوجود غير كائن ، والوجود كائن . » ولكن كيف اعرف هذا الطريق ؟ كيف اقترب من الوجود الحي ، لا الوجود الميت المتحجر ؟ كيف أصل الى الوجود الشامل الذي اراده الفيلسوف ، فأميزه عن الوحدة الميتة التي تجمع الحق والباطل ، والوجود واللاوجود ؟ هل أجعل منه موضوعا لذاتي المفكرة ؟ ولكن هذا الفعل نفسه يثبته ويحدده كما يحددني . انه يجعل الذات تصطدم بالموضوع فأتحرك في مجال لا أستطيع أن أفرق فيه بينهما . ولكنني مضطر الى هذه التفرقة ، والا اختفى الموضوع الذي أبحث عنه . فهل ألجأ أمام هذا الموضوع الشامل ـ موضوع الوجود ـ الى اصدار حكم عليه يوحد بيني وبينه ؟ ولكن من أين لي ، وأنا البشر المحدود ، بهذه القدرة ؟ أليس من طبيعة الاشياء ومن طبيعتي البشرية أن يظل الموضوع على الدوام « موضوعا » أمامي ، مقابلا في كل كلمة أو اشارة أو فعل أقترب به منه ؟ ها أنذا أجرب طريقا بعد طريق ، وأصدر حكما بعد

حكم ، ولكن الحقيقة مختلطة بالباطل ، والوجود ممتزج باللاوجود وانا لا استطيع ان اميز أحدهما عن الاخر . اريد ان اقول للطريق الخاطىء ((لا)) ، فلا استطيع ان استعين بطريق بارمنيدز الوحيد ، لانـــه لا يؤدي الا الى ((نعم)) مؤكدة . انه لا يقول لا فحسب ، بل ينفي اللاوجود نفسه ، ومعه كل نعم كامنة فيه . قائل لا يقول للاوجود ((لا)) ، وهو مضطر ان يقولها لتسمعها العامـــة ((ذات الـرؤوس المزدوجة)) لانها تتعلق باللاوجود ، وتظـــل في ليل الظن والجهل ، لا تملك شجاعة العارفين ، ولا ترفعها ((بنات الشمس)) الى أعـلى (قارن الشذرة الاولى من شذراته الباقية) . غير انه في الحقيقـة ليس في حاجة الى ان يقول ((لا)) للاوجود . ذلك لان هذا اللاوجود لا وجود له عند بارمنيدز . انه يعيش على الدوام في مسالة متالقة ، في مملكة النهار والضوء الساطع ، ومــع ذلك فان نهاره لا يكشف الليل ، وعلمه لا يفسر لنا وجود الجهل . واذا سالناه لم كان الجهلاء جهلاء ولماذا لا يعرفون الوجود كما يعرفه سواهم ، وهل نسيهم هـذا الوجود ام نسوه ، اجابنا انهم يتعلقون باللاوجود . ولانهم يتعلقـون باللاوجود فهم دائما ما يقولون ((لا)) ، وهم يقولون ((لا)) ، لانهـم خاضعون لسلطان الحواس ، يرون الظـــاهر حيث يكون الباطن ، والكثرة حيث تكون الوحدة . انهم خائفون على الدوام ، لان ((اللاوجود)) يهددهم ، وتهديده يحملهم على قول ((لا)) ، ويعجزهم عن قول ((نعم)) للوجود الواحد الحقيقي .

اذا كان هذا هو حال من يقول ((لا)) فان قائل ((نعم)) عنـد بارمنيدز ليس افضل منه حالا . ذلك لان الانسان لا يصل الى النعم الحقيقية الا بعد أن يقول لا مرات ومرات ، ولا يسير على الطريـق الحق حتى يعدل عن طريق الخطأ التي لا حصر لها . ان قائل نعـم عنده أشبه بمن اكتشف الطريق . ولكن ما كان احوجنا الى ان يشرح لنا المشقة التي عاناها حتى وصل الى هذا الكشف ! وليس احب الى الانسان من قول نعم ، خصوصا اذا كان يقولها للحقيقة المضيئـة كالنور ، على أن تأتي هذه ((النعم)) في نهاية الطريق لا فــي بدايته ، لا بل أن تكون على الدوام كامنة في كل ((لا)) يقولها ، وكل احتجاج يصرخ به .

كان اذن على الفيلسوف الوقور بارمنيدز أن يميز بين نعم كامنة في لا ، بفضلها تستطيع هذه ان تصمد لتهديد اللاوجود ، وبين نعـم أخرى ((لا تبلغها رغبة)) و ((لا تلطخها لا)) كما يقول نيتشـــه . ذلك لانني لا استطيع ان أستمع الى ((النعم)) الاولى الا من خلال ((لا)) ، ولا ان اجرب الوجود حتى اقول ((لا)) لكل ما ليس بوجود ، ولا ان أوافق حتى احتج هذا الاحتجاج الانطولوجي (الوجودي) . ولا استطيع كذلك أن أصل الى النعم الاخرى ، حتى اتخلى عن كل شيء ، واشيح ببصري عن كل ما يتهدده اللاوجود ـ ومنه نفسي ـ بالخراب ، لا بل اتخلى عن اللغة التي تحتمل الخطأ حتى اصل الى الوجود الذي تعبر عنه لغة البشر . هنالك اصل الى تلك النعم ، أو تلك النعمة الغريبة اليائسة التي سماها نيتشه بالكوكب الاعلى ، والوصية الفريـــدة والنعم الابدية للوجود . وهنالك لا يملك الانسان الا ان يقول تلك النعم المقدسة ، و ((يحيي ظهر الارض والبشر العظيم)) .

لولا هذه النعم الكامنة كمون البذرة في اللا ، لكان شك الشكاك ، ويأس اليائسين في معنى الحياة عامل تدمر لا يرحم . والا فمن أين جاء ديكارت اليقين ، وقد راح يشك في كل شيء ؟ الم تكن هنـــاك ((نعم)) وراء الـ ((لا)) الملحاحة ، جعلته يطمئن الى انه مهما شك في كل شيء حتى في شكه ، فسوف تبقى حقيقة التفكير التي تسلمـــه الى طمانينة الوجود ؟ ومن أين جاءت ((كامو)) شجاعته ، وقـد راح يحتج ويتمرد ويصرخ بأن الوجود لا معنى له ، لـو لـم تكـن هنـــاك ((نعم)) وراء هذه الـ ((لا)) المعذبة ، تؤكد له ان هناك معنى فـي احتجاجه على اللامعنى ، وان الحياة تستحق أن نحياها لا بل يجـب أن نحيا كل لحظة فيها ولو كانت مجردة عن المعنى ، بل ربما لهـذا السبب نفسه ؟! وهل كان بارمنيدز ليحتج على اللاوجود ويرفضـــه لو لم يكن يريد تأكيد الوجود الثابت ، والجوهر الخالد الباقـي ؟! هناك اذن قوة تتجلى في قول ((لا)) ، وتتكشف في كل احتجاج على الخطأ والباطل واللاوجود ، قوة تحمي الشاك من الهلاك تحت سنابـك الشك ، وتقي اليائس من الغرور كما تقيه من الاستسلام وتدمـــير النفس . لنسم هذه القوة الوجود أو العقل أو حكمة الحياة او نعمة السماء ، فوراء اختلاف الاسماء اتفاق على ((النعم)) الكامنة كمــون البذرة الحية في ((اللا)) .

***

وليس أمر ((اللا)) مقصورا على الفلاسفة والمفكرين . فالانبيـاء ايضا قد يحملون امانتها ، فيهربون من عبئها ، ويفرون من وجه الرب الغاضب ، ناسين انه لا ينذر الا ليبشر ، ولا يتوعد ألا ليعد . ((صار قول الرب ـ كما يقول الاصحاح الاول من سفر يونـان (يونس) ـ الى يونان بن امتاي قائلا : قم اذهب الى نينوي المدينة العظيمة ونـاد عليها لانه قد صعد شرهم أمامي)) .

كان على يونس النبي ان يذهب الى أهل نينوي ((الذين لا يعرفون يمينهم من شمالهم)) ليبلغهم بأمر ((اللا)) الالهية ، وليحمل اليهم مع نذير السماء البشير بكلمة الله . ولكنه على ما تصف القصة المشهورة هرب من وجه الرب ، ونزل الى يافا ليركب سفينة ذاهبة الـــى ترشيش . ويرسل الرب ريحا شديدة الى البحر تهز السفينة حتـى تكاد تنكسر . ويفزع الملاحون كل الى الهه يستصرخـه ، بينما يغط يونس في نومه في جوف السفينة . ويساله الرجال عن أمره فيقول انه خائف من الرب الذي صنع البر والبحر . ويسالهم أن يطرحـوه في البحر فيسكن البحر عنهم ، لانه بسببه كان هذا النوء العظيم عليهم . واعد الرب حوتا عظيما ليبتلع يونس ، فكان في جوفه ثلاثة أيام وثلاث ليال . وظل يونس يدعو ربه ويعترف بذنبه ويتوب اليه حتى امر الحوت فقذف به الى البر . وذهب يونس الى نينوي مـرة ثانية لينادي لها المناداة التي كلمه الرب بها . وهناك انذر يـونس وتوعد ، قال لاهل نينوي ان المدينة العظيمة ستنقلب بهم بعد أربعين يوما . انذر ولم يبشر ، توعد ولم يعد ، صرخ ((باللا)) ولم يفطـن الى ((ألنعم)) التي يمكن أن تتفتح عنها . وآمن اهل نينوي بما قال ، صاموا وصلوا ولبسوا من الملك الى الراعي مسوح الرهبان . ندموا الى الرب ورجع كل واحد عن طريقه الرديئة وعن الظلم الذي فـــي أيديهم . ندم الرب أيضا عن الشر الـــذي تكلم على لسان يونس أن يصنعه بهم فلم يصنعه .

لكن يونس الذي توقع ان ينفذ الرب وعيده ، فيحول المدينة الى أنقاض والاحياء الى جثث ، قد ((اغتاظ بالصواب)) ، ولم يعـرف ان الاله الغاضب هو نفسه الاله الرحيم ، وان كلمته التي تقول ((لا)) تقول معها ((نعم)) في نفس واحد . واستولى عليه اليأس فدعا ربـه ان ياخذ نفسه منه ((لان موتي خير من حياتي)) ويخرج من المدينـة ويجلس في الظل ليرى ماذا حدث للمدينة . ويعد الرب الاله يقطينة تظله وتخلصه من غمه . ويفرح يونس فرحا عظيما . ولكن لا يلبـث الفجر أن يطلع حتى تيبس اليقطينة وتهب ريح شرقية حارة فتضرب الشمس على رأسه فتذبل . ويحزن يونس على الشجرة ، وهو الذي بخل بحزنه على المدينة العظيمة . ويعرف انه شك في رحمه الله ، وجلس بعيدا عن المدينة ينتظر أن يراها تنهار امام عينيه . ويعـود يطلب الموت لنفسه ويقول موتي خير من حياتي .

انتهى يونس الى اليأس لانه كلف بامانة قول ((لا)) ففر مــن تبعتها ((بلا)) الهروب . صحيح انه يتلقى الدروس من الرب ويتعلم حكمته في جوف الحوت ، فيخرج منه ليبلغها لاهل المدينة العظيمـة ـولكن مأساته انه وقف موقف من يقول أما ((اللا)) أو ((النعم)) ، ولم يعرف انهما يمكن أن يجتمعا في وحدة واحدة . وراح ينتظـر انهيار المدينة التي ابلغها غضب الرب ، دون ان يعرف ان الرب نفسه رؤوف حكيم . لقد وقف عند منطق أهل نينوي الذين لا يعرفون يمينهم

من شمالهم ، ولم يستطع أن يسمو الى رأي الانبياء الذين يعرفون ان هناك طريقا ثالثا غير طريق النعم أو اللا ، طريقا يجمع بينهما في وحدة الوجود ونعمته وقوته . وهكذا ظل يونس حائرا بين اخلاصه لكلمة الرب وخيانته لها . فقول « لا » أمر عسير دائما ، وقائل « لا » ينبغي أن يدخل في حسبانه الاهوال التي يمكن أن يتعرض لها ، والشجاعة التي تلزمه بها . وقد كان عسيرا على يونس أن يسمع أهل المدينة هذه اللا الالهية بغير أن يفسد علاقته بالله ويخون نفسه ويخون المدينة العظيمة . وترنح يونس بين « لا » الهروب و « لا » الدمار ، حتى علمه الرب درسا يمكننا أن نتعلم منه !

***

من الصعب أن يقول الانسان « لا » .
ولكن من أين عرفنا هذا ، ومن الذي عرفنا به ؟

نحن نعلم ان هناك نوعا من الناس يعجزه أن يقول « لا » . فهو يخشى ان قالها أن ينعزل عن الناس أو يعزله الناس عنهم . وهو يخاف أن يؤذي أحدا كما يخاف أن يؤذيه أحد . وهو يظن اذا سكت عن قول « لا » ، انه سيرضى عن كل شيء وعن كل انسان . ولكنه لا يستطيع أن يرضى عن كل شيء ولا عن كل انسان . فالقوى التي يخشى ان هو عارضها أن تطرده وتتعقبه ، تتصارع فيما بينها . وهو ان سكت أو احتج محكوم عليه بالوقوع تحت رحمتها ، والتمزق بسببها . هل يستطيع أن يخلص نفسه منها اذا واجهها بقول « لا » ؟ هل يضمن ان ينجو من شرها جميعا فلا تناله احداها ؟ انه يحاول بالصمت أن ينجو من هذه القوى جميعا ، أن لا يبدي مقاومة ، أن يصبح « لا أحد » . ولكنه لا يستطيع أن يكون « لا أحد » . ومحاولته ان يكونه تفضحه . انه في كل لحظة معرض لالوان من الجزاء ، وهو لا يستطيع أن يكتفي بموقف المعذب والضحية ، بل لا بد له أن يقوم بدور المنفذ والجلاد ، مهما حاول أن يغسل يديه ويعلن براءته . ومن ثم يحاول أن يسلم نفسه لاحدى هذه القوى ، غير انها لا تحميه ، بل تهدد بابتلاعه ، وفي طريقه الى الهروب من احداها يقع في أسر الاخرى . ويبدأ في القفز من احداها الى الاخرى . لكنه لا يحتاج الا لقوة واحدة تعطيه القدرة على القفز . ويحاول أن يتعالى عليها جميعا ، أن يقول للكل « لا » . غير ان التعالي لا ينجح الا في الظاهر . فهو ما يزال في حاجة الى قوة تؤكد له انه متعال ومرتفع . وتتنافس القوى عليه ، ويضطر أن يدافع عن ذاتيته التي يتهددها الضياع فيقول لهذه القوى « لا » ، ويقول لنفسه « لا » . ولكنه يجد انه لا يستطيع أن يقول لها جميعا « لا » ، فيوافق على احداها أو بعضها ، ويوحد بين ذاته وبينها . ويكتشف في التوحيد تهديدا جديدا بفقدان الذات . ويرى نفسه وحيدا لا يجد شيئا يتمسك به ، فيبدأ في البحث عما هرب منه ، ويفزع الى المحدود هربا من غير المحدود ، ويتلمس الشكل نجاة مما لا شكل له ، ويدخل مختارا في أسر الجبر والالزام ليخلص من حرية الفراغ . ويسال نفسه : هل أستطيع أن احتفظ بذاتيتي اذا قبلت كل القوى والانظمة ووحدت نفسي بها ؟ واذا رفضتها جميعا فهل أحافظ عليها ؟ وبعد أن كانت المسالة في أول الامر مسالة تكيف مع القوى الخارجية والداخلية ، تصبح المشكلة عنده هي فقدان الذات أو الاحتفاظ بها . ويعرف الان ان من الصعب على الانسان ان يقول « لا » وأصعب عليه الا يقولها . فهو يقولها ليحتج على اضاعة ذاته (وماذا يكون بدونها ؟) فاذا قالها عادت فهددت هذه الذات بالضياع . وهو ان امتنع عن قولها وحاول أن يعزي نفسه بالارتفاع فوق القوى والانظمة والاشكال جميعا ، عاجله الخوف والقلق من ان ذاته لم تتحد مع شيء ولا ارتبطت بشيء ، وهو أبشع ألوان الخوف والقلق في عصرنا الذي نعيش فيه .

***

كيف ينجو من هذا القلق من يبحث عن النجاة ؟ بالكلام ؟ ولكن الكلام يبدو سخفا وعجزا ، حيث يصبح الكلام الحقيقي والحوار الحقيقي مستحيلا . بالصمت ؟ ولكن هل يخلص الصمت من الخوف ، وقد تسبب الخوف فيه ؟ ان الانسان لا يستطيع أن يبقى بغير لغة ، فحتى الصمت نفسه نوع من الكلام مع الذات ، حين تتكسر جسور الكلام مع الاخرين . لا بد اذن أن يبحث الانسان عن لغة . هنا يختلف الناس بعضهم عن بعض . فالبعض يسكت ، وهم ملايين في عالمنا الحديث ، وفي صمتهم أو لنقل في عجزهم عن الكلام نوع من الاحتجاج الاخرس ، نوع من قول « لا » . والبعض الاخر يهرب الى الشعارات والحكم والكلمات المحفوظة ، لعجزه عن الكلام الحق ، فلا يلبث أن يفزع من هذه الشعارات والحكم والكلمات المحفوظة . وفريق ثالث يبحث في الفن والعلم عن لغة جديدة ، لا بل يحاول ان يوجدها في كل عمل جديد . ولغته هنا نوع من قول « لا » ، أو من الاحتجاج على لغة لم تعد تقول شيئا .

قول « لا » أمر عسير . لان القول نفسه أصبح عسيرا ، واللغة حملا ثقيلا مفروضا من أعلى . وقول « لا » أمر صعب ، لانه احتجاج على ضياع اللغة الحقة ، لغة الحوار بين البشر ، لغة السؤال والجواب ، والرأي والاعتراض عليه . قول « لا » في وسط الصمت السائد كاحداث ثقب في سفينة . انه نوع من الاحتجاج يهدد صاحبه بالخرس والصمت . والخوف من الصمت ، حتى ولو هرب الانسان اليه ، من أبشع أنواع الخوف في عصرنا الذي نعيش فيه .

خوف من ضياع الذات ، وخوف من فقدان اللغة ، وقلق من أن يصبح الانسان شيئا من الاشياء ، او يصبح اخرس يخدع نفسه بالحياة في جنة الصمت أو يتحايل على الحياة في جحيمه . كلاهما نوع من تدمير الذات . وكلاهما من أبشع ألوان الخوف في عصرنا الذي نعيش فيه .

قد يظهر هذا التدمير ملفتا للانظار في الانتحار ، او الجنون أو الفزع الى حياة اللذة المسعورة أو حياة العزلة والرهبنة المفروضة . ولكنها جميعا ألوان من تدمير الذات ، تحاول كلها أن تهرب من خيبة الامل في نفسها وفي العالم لتقع من جديد في خيبة الامل .

كيف نقاوم هذا التدمير الذي يتفشى كالوباء في كل مكان ؟ كيف نستطيع أن نقول « لا » دون أن نفقد ذاتنا أو نضطر الى الصمت الاخرس ؟ كيف نحافظ على هذه القوة الاصيلة في الانسان ، قوة الاحتجاج وقول « لا » ؟ كيف نصر على المقاومة ، وسط أمواج الدمار التي تلتف علينا ، بغير ان نخاف من الخوف ، وبغير أن نخدع أنفسنا ببطولة زائفة أو نعزيها بالانعزال التعيس ؟ في أمواج الدمار نفسها ينبغي علينا أن نبحث عن قارب النجاة . وسط القوى المتصارعة يجب أن نقاوم . بين أصوات الزيف وصيحات المخادعين لا بد ان نصرخ قائلين : « لا » . هنا ايضا يجب أن نبحث عن كل من يصرخ مثلنا ويقول « لا » . سنجد بينهم كثيرين من المزيفين والدجالين ومن لا يعلنون السخط الا لكي يتعرفوا على الساخطين . وليست الصعوبة في أن نجد المحتجين الحقيقيين بدلا من المحتجين المتزيفين ، بل هي في اكتشاف الحقيقيين بين صفوف المزيفين . وان لم نفعل كذلك فنحن نخون انفسنا ، ونخون الوجود الحق الذي نقول باسمه « لا » .

قول « لا » أمر صعب . لانه احتجاج على تدمير ذات الانسان ، ولانه يهدد قائله بالدمار . والخوف من الدمار ـ حتى ولو هرب الانسان منه بتدمير نفسه بالموت أو الجنون او الصمت ـ من أبشع ألوان الخوف في عصرنا الذي نعيش فيه .

***

لنضرب مثلين على الوقوف في وجه الموت ، وعلى مقاومة العنف والوحشية .

أما أحدهما فنتعلمه من أبي الشعراء هوميروس ، وأما الاخر فمن شاعر حديث هو برتولد برخت . فالقارىء يذكر من قراءته للاوديسة كيف مكر أوديسيوس بالوحش الخرافي الرهيب (الكيكلوب) وكيف استطاع أن يفقأ عينه الواحدة ، بعد أن ابتلع رفاقه الملاحين واحدا بعد الاخر أمام عينيه .

في الانشودة التاسعة من الاوذيسة يحدثنا البطل المغامر أوديسيوس كيف اتجه مع رفاقه الاثني عشرة الى بلد الكيكلوب ، هؤلاء العمالقة الجبارين ، الذين لا يعرفون شريعة أو قانونا ، ولا يزرعون بأيديهم ولا يحرثون ، بل ينمو كل شيء في أرضهم ، اعتمادا على الالهة الخالدين. اقترب هو ورفاقه من الجزيرة التي يسكنها العمالقة ، ورأوا من بعيد كهفا يشرف على البحر ، تظله أشجار الغار . « هناك اعتاد هذا العملاق الوحشي أن يقضي الليل ويرعى الحيوانات بعيدا لا يختلط بغيره ، بل يعيش في عزلته ويتفكر في ما يخالف القانون . فلقد خلق كما تخلق الاعجوبة الخارقة . لا يشبه رجلا يأكل الخبز ، بل قمة صخرية كثيرة الشجر على جبل مرتفع ، تبدو واضحة للعين ، بعيده عن غيرها من القمم » .

حمل اوديسيوس معه قربة نبيذ أحمر ، وسلة مملوءة بالطعام ، استعدادا لمواجهة رجل شديد البأس ، لا يعرف شريعة ولا يخضع لقانون . ودخل هو ورفاقه الى الكهف ، فأكلوا وأشعلوا نارا وقدموا ضحية ، وجلسوا ينتظرونه . ودخل العملاق أخيرا ، يحمل حملا ثقيلا من الخشب ليسوي عشاءه ، ودفع ماشيته في الكهف ، ثم رفع صخرة هائلة سد بها الباب . وبعد أن حلب الماشية وفرغ من شؤونه، أشعل نارا . ولمح الغرباء على ضوئها فسألهم ، في صوت « تكسر له القلب الحبيب » : « أيها الغرباء ، من أنتم ؟ ومن أين أتيتم سيرا على الدروب الرطبة ؟ هل جئتم في مهمة ؟ أم تجوبون البحار المالحة كالقرصان الذين يتجولون هنا وهناك ويخاطرون بحياتهم حين يجلبون الاذى على غيرهم ؟ » . ويجيبه أوديسيوس فيروي عليه أنباء رحلته من طروادة وكيف ضل الطريق الى الوطن ، ويطلب منه أن يحميه ورفاقه وأن يخشى الآلهة فيكرمهم . لكن العملاق يسخر من سذاجته ، اذ كيف يدعوه الى خشية الالهةوالعمالقة لا يكترثون بزيوس ولا بغيره ؟ وقفز العملاق ومد يديه الى الرفاق فتناول اثنين منهم قذف بهما على الارض كالكلاب الصغيرة ، ثم أعدهما لوجبة العشاء وأكلهما — كالاسد الذي يتغذى في الجبال — فلم يبق منهما لحما ولا عظما . وبعد أن فرغ من الطعام وشرب اللبن تمدد على الارض ونام .

خطر لاوديسيوس أن يطعنه في صدره ، ولكنه تذكر انه لن يستطيع هو ورفاقه وحدهم أن يزحزحوا الصخرة الهائلة التي سد بها الكيكلوب باب الكهف . ولم يبق أمامهم الا ان ينظروا الفجر الالهي وهم يتنهدون .

ولم تكد تشرق ايوس ذات الاصابع الوردية ، حتى أشعل نارا وبدأ يحلب ماشيته . ثم أمسك باثنين من الرفاق وفعل بهما ما فعله بصاحبيهما ! وراح اوديسيوس يفكر في وسيلة تكتب المجد لراعيته أثينا وتجعل الكيكلوب يكفر عن ذنوبه . ورأى عصا خشنة تركها العملاق وراءه ، خضراء من خشب الزيتون ، قدرها هو ورفاقه في ارتفاع سارية سفينة سوداء ذات عشرين مجدافا ، عريضة تحمل البضائع وتعبر الاعماق العظيمة . وأمر أوديسيوس رفاقه أن يشذبوها، ثم سن طرفها الاعلى ووضعها في النار حتى حميت ، ثم أخفاها تحت أكوام التبن . وحين عاد العملاق في المساء وفعل ما فعله من قبل ، تقدم منه أوديسيوس وفي يده وعاء مملوء بالنبيذ الاسود وطلب منه أن يشربه . وافرغ الوحش الشراب العذب في جوفه ، وطلب ان يسقيه مرة اخرى وان يقول له اسمه على الفور ، حتى يقدم له هدية تفرح بها نفسه . وبعد أن شرب ثلاث مرات ، وبدأت الخمر تعبث برأسه ، قال له أوديسيوس : « ايها الكيكلوب ! تسألني عن اسمي المشهور ، حسنا ! سأقوله لك ! أما أنت فاعطني هدية الضيافة كما وعدتني ! اسمي هو « لا أحد » . وأبي وأمي وكل رفاقي يدعونني لا أحد ! » ووعده الكيكلوب ان يقدم له الهدية . اما هذه الهدية فهي ان يكون اخر من يأكلهم من الرفاق !

وقهر النوم ذلك القهار فتمدد على الارض فاقد الوعي ، وراح يلفظ النبيذ ولحم البشر من فمه . وأخرج أوديسيوس الساري الجبار من تحت الرماد فحماه في النار حتى اصبح شواظا ملتهبا . واخذ يشجع رفاقه حتى حملوه ، واوديسيوس متعلق بطرفه ، وراحوا يغرزونه في عين الكيكلوب التي اندفع منها الدم الساخن ، وأزت كما تئز فأس ملتهبة يضعها الحداد في الماء البارد . زعق الوحش وزأر ، واهتز الصخر لصوته ، وراح ينادي على زملائه الساكنين في الكهوف المجاورة . فتجمعوا على باب الكهف واخذوا يسألونه ان كان أحد من الفانين قد اغتصب خرافه ، أذ لا يصدق أن يكون أحد منهم قد اعتدى عليه بالقوة او بالخديعة . ورد عليهم ذو الاسماء المشهورة : « يا أصدقائي ! لا أحد هو الذي اعتدى علي بالحيلة لا بالقوة ! » فأجابوه : ان كان لا أحد قد اعتدى عليك وكنت وحدك ، فان مرضا أصابك به زيوس لا سبيل الى الشفاء منه . صل اذن لالهك بوزيدون (اله البحار) .

هكذا تكلموا ثم انصرفوا الى حالهم . أما اوديسيوس فقد ضحك « قلبه الحبيب » من اسمه الذي خدعهم ، ومن الخاطر الذي لا يلام » !

جلس الكيكلوب على باب الكهف . وفكر أوديسيوس في حيلة اخرى تنجيه ورفاقه من الموت ، فربط كل ثلاثة من الخراف السمينة باكياس تعود الوحش أن ينام عليها ، كما ربط رجلا تحت كل واحد يوسطها ، ودفن نفسه في صوف جدي وثير . وهكذا اخرج الكيكلوب الاغنام لترعى فافلت المغامر الماكر من بطش ذلك الجبار ! واستطاع الضعيف العاجز ان يصيب العملاق « ذا الاسماء المشهورة » بالعمى بعد ان قهره بالخمر والمكر !

***

هناك ابطال كثيرون علموا الانسان كيف يقتل وكيف يموت . اما أوديسيوس فهو يعلمه كيف يواجه خطر الموت ، فيفلت منه في كل مرة ويبقى حيا !

لقد رأينا كيف مكر بالوحش ذي الاسماء المشهورة . فهو ينكر اسمه فينجو من بطش الوحوش الاخرى : « ان لا أحد هو الذي اعتدى علي بالحيلة لا بالقوة » . وهو يتعلق ببطن الجدي السمين فلا تصل اليه يد العملاق ، ويفعل كل ما يستطيع لكي يكون « لا أحد » . غير انه لا يظل كذلك ، ولا يحتمل ان يبقى مجهول الاسم . فحيلته الكبرى هي انكار نفسه للابقاء على نفسه . وليس من قبيل الصدفة ان يظهر أوديسيوس مجهول الاسم امام الوحش ذي الاسماء المشهورة ، فلعله رأى ان انكار النفس هو اقصر طريق الى الشهرة .. وان التخلي عن الذات هو اضمن وسيلة للمحافظة عليها .

عرف أوديسيوس اذن كيف يحافظ على ذاته أمام الموت . لم يعض على الوحوش الهائلة ، بل فوت عليها فرصة القضاء عليه ، ولم يبطل تأثيرها وسحرها ، بل عرف كيف ينجو منها . ولم يدخل معها في صراع ولا صدام حقيقي ، كما فعل هرقل مع قوى الشر في مغامراته المشهورة ، بل اكتشف نقط الضعف في قوتها الهائلة ، وجانب القوة في ضعفه الانساني . انه لا يستسلم أبدا لقوة تريد أن تمحوه أو تبتلعه . فالجزر المسحورة التي تعده بالسعادة عن طريق النسيان ، لا تستطيع أن تغريه بالبقاء . والساحرتان القديرتان (كاليبسو وكيركه) تفعلان كل ما في قدرتهما لاقناعه بالزواج منهما فلا تستطيعان أن « تحركا الشجاعة في صدره » على الارتباط بهما . ذلك ان الزمن الذي لا يتوقف ينجيه من العمالقة والوحوش . فهو المسافر الذي لا يستقر في مكان (سلف السندباد !) يملأ الشوق صدره الى وطنه ايثاكا (خشنة هي ايثاكا ، ولكنها طيبة ، وصالحة لاطعام الرجال) وتمر عليه التجارب المرة والعذبة فلا تنسيه انه ليس هناك ما هو أعذب من الوطن والابوين . انه المسافر الباقي ، المحافظ على ذاتيته دائما . في بعض الاحيان يضطره الامر الى تقديم الدليل ، حين تتكسر به السفينة على الشواطىء الغريبة أو يتخفى في ملابس الشحاذين . أو يعود الى بيته . ولكن كيف يتم له ذلك ؟ بالتذكر . فالتذكر هو الخيط الذي يمسك به على محطات رحلته ، والتذكر هو الذي يحفظه من أن ينسى نفسه أو ينسى . وحين تتغلب عليه آلام التذكر تظهر حقيقته . فهدفه واحد لا يتغير ، وهو الرجوع الى وجوده القديم ، والعودة الى بيته ووطنه . وحين يعود الى هذا الوطن ، ويدخل بيته

كما غادره شابا لم تغيره السنون ، يبدو كأن الزمن الذي لم يكف عن الجريان قد توقف ، وان شخصيته التي تهددتها أهوال الرحلة لم تتغير ولم تصب بسوء . لقد كانت كالقدر المعلق فوق رأسه على طول الطريق . واذا كانت النبوءة قد أخبرته من قبل انه سيتعذب وسيعود الى وطنه ، فقد ظلت هذه النبوءة كالمستقبل الذي يتذكره قبل أن يحدث ، لا الماضي الذي يستحضره بعد أن يفوت . وظل هو أوديسيوس الماكر الذي ينتصر على الخطر قبل ان يقع له ، كأنه لا يتعلم ولا ينسى . ومع ذلك فالمكر له حدود ، فهو مهما بالغ فيه لا يستطيع أن ينسى ولده ولا أن يضحي باسمه . وهو مهما ادعى الجنون أو أنكر الاسم فلا يلبث أن يفضحه حرصه على المجد ، كما يفضحه حرصه على الابن ، وكلاهما ضمان لتخليد الذات عبر الزمن الدوار .

ونهاية أوديسيوس نفسها ، على اختلاف رواياتها ، تؤكد ذاتيته ولا تمحوها . فسواء أكان موته على يد ولده تليجونوس من الساحرة كيركه ، أو على يد ولده تليماخوس من زوجته بينيلوبه ، اللذين قتلاه دون أن يعرفاه ، فان موته لا يعني القضاء على شخصيته ، على الرغم من محاولته أن ينكر نفسه ويبدو كأنه « لا أحد » . ذلك ان الولدين وأن كتب على يديهما هلاك الاب ، يحلان محله ويبقيان على اسمه من بعده ، وذلك بأن يتزوج تليماخوس من كيركه وتليجونوس من بنيلوبه. وهكذا يمتد ذكر أوديسيوس امتداده الطبيعي عن طريق الابن ، وامتداده المعنوي عن طريق المجد والشهرة ، لكي يبقى في ذاكرة الزمن رمزا للبطل الذي حاول أن ينكر نفسه فلم يستطع أن يكون « لا أحد » !

***

وتقابلنا شخصية أوديسيوس في العصر الحديث عند الشاعر برتولت برخت في أقاصيصه « حكايات السيد كوينر » . هنا نجد السيد « ك » (وهو اختصار لاسمه كوينر) الذي يصر على تسمية نفسه « لا أحد » . انه يحاول أن يجعل عدم الاكتراث مبدأ حياته ، فتكشف حياته وأقواله عن اكترائه بكل شيء . فهو يأخذ على سقراط إن منهجه هو عدم الاكتراث (لو انه درس شيئا ، لعرف شيئا) ، وهو يقف في صف العدالة (فمسكنه يجب أن يحتوي على أبواب كثيرة للخروج) وهو يؤثر الفيل على كل الحيوانات ، فالفيل يجمع بين المكر والقوة ، ويستطيع أن يكون حزينا وغضوبا ، وهو لا يؤكل ويتقن العمل ، ولا يلفت الانظار بلونه ، ولكن بضخامته . وهو اذا أحس باقتراب نهايته ذهب الى الغابة فمات وحيدا وفي صمت .

إن أوصاف السيد كوينر للحيوان الاثير لديه تنطبق على نموذج الانسان عنده . فهو لا يحب أن يلفت الانظار اليه ، ويبالغ في ذلك الى حد أن يسمي نفسه « لا أحد » . غير ان هذه التسمية لا تخدعنا . فالسيد كوينر ليس « لا أحد » ولا يمكنه ولا يحب لنفسه أن يكون كذلك . فما الذي يدفعه الى هذه التسمية ؟ ان حكاية صغيرة من حكاياته توضح ذلك . « فقد التقى ذات يوم برجل لم يره منذ زمن طويل . وحياه هذا بقوله : انك لم تتغير أبدا . فرد عليه السيد ك. قائلا : آه ! وشحب وجهه » .

لا بد ان السيد ك. قد أحس بأن أمره افتضح ، والا فلماذا شحب وجهه ؟ هل شعر من تحية صديقه انه يتهمه بأنه وقف في مكانه فلم يتطور ولم ينضج ولم يتقدم خطوة الى الامام ؟ قد يكون هذا تفسيرا للشهقة التي انطلقت عنه . ولكن لو صح ذلك لتوقعنا أن يحمر وجهه خجلا لا أن يشحب اصفرارا . أم لعله شعر ان الرجل قد كشفه وتبين انه لا يزال كما هو ، واحدا من الملايين بلا صفة تميزه ، و « سيدا » كآلاف غيره كلهم « كافات » ؟ لو كان الامر كذلك لما حق له ان يشحب وجهه ، بل لرضي بذلك وفرح لأنه لم يتناقض مع نفسه . لا يبقى اذن سوى أن نقول ان وجهه قد شحب لأنه غير راض عن الدور الذي يمثله دون ان يعبر عن حقيقته ، ولان صديقه قد عرف انه ليس ذلك « اللا أحد » الذي يحاول جاهدا أن يدعيه . فهو قد أنكر ذاتيته ، وراح يحملها كأنها عبء لا يستطيع أن يتخلص منه ، ومع ذلك فقد أكدها بانكاره لها ، وهذا هو الذي فضحه فشهق وشحب وجهه .

هل يكون « السيد ك » صورة جديدة من أوديسيوس في كهف الوحش الكثير الاسماء ؟ ان أوديسيوس خائف من أن يكون « لا أحد » . انه لا يمثل دور المنكر لنفسه كما يفعل شبيهه الحديث ، بل يدعيه دفاعا عن اسمه الحقيقي ، وتخليدا له . ذلك هو مصدر خوفه . أما السيد « ك » فقد تخلى عامدا عن اسمه . ولسنا ندري من حكاياته ان كان يحمل اسما سريا كما تحمله الشخصيات الخرافية التي تعيش تحت الارض . فتخليه عن اسمه لا يعني انه تخلى عن ذاته . بل العكس هو الصحيح . لان اسمه الجديد نوع من الافلات من الاسم ، يتيح له في نفس الوقت أن يعرف وأن يتجاهل ما عرف ، أو يتظاهر بتجاهله . ولقد افتضح أمره لانه تعمد أن يستبعد التسمية فلم يفلح في أن يظل بغير اسم ، وزعم انه « لا أحد » فلم ينجح في أن يكون « لا أحد » . أراد أن يبعد عن نفسه شبهة المعرفة ، فتبين انه عرف الى حد السخط والثورة . وأصبح رمزا لكل من يقف موقف الاعزل في وجه القسوة والظلم والوحشية ، فيقاومها بعجزه عن المقاومة !

أضف الى هذا كله ان السيد ك. ليس أي واحد من الناس . انه يلقي المحاضرات ، ويثبت انه نافع (كذلك الفيل حيوان نافع : فهو يؤدي شيئا في سبيل الفن اذ يقدم سن الفيل !) بل انه يستطيع في بعض الاحيان أن يحتج ، فيعلن في احدى خطبه العامة انه يستنكر العنف والارهاب . هنالك يلاحظ أن الحاضرين انسحبوا من محاضرته . ويلتفت السيد « ك » ليرى الارهاب نفسه واقفا وراءه ! فاذا سأله ماذا كان يفعل أجاب بأنه عبر عن سخطه عليه . ويسأله تلاميذه : لم لم يكن له ظهر يحميه أو لماذا خلق بغير عمود فقري ؟ فيروي لهم حكاية « السيد اجه » Herr Egge

ففي زمن النازية الذي تعطلت فيه القوانين وسادت شريعة الفوضى جاء أحد عملاء هذا « النظام » الى السيد اجه عارضا عليه المسكن والمأكل وسأله : هل تقبل أن تخدمني ؟ ومضى السيد « اجه » يخدمه سبع سنوات بدون أن يقول كلمة واحدة ، وسمن العميل من كثرة النوم والاكل واصدار الاوامر حتى مات . وحمل السيد « اجه » جثته الى الخارج ونظف البيت وتنفس الصعداء وقال : « لا » .

ثم يعقب السيد « ك » قائلا : أنا بالذات لا يصح أن يكون لي عمود فقري . اذ يتعين علي أن أعيش أطول مما يعيش الارهاب » .

وهنا نسأل : هل كان في استطاعة السيد « اجه » أن يصلح العميل ويرده عن خدمة العنف والارهاب ؟ لا شك انه لم يكن يستطيع . هل كانت مصادفة انه بقي حيا ؟ نعم كانت مصادفة . هل أثمر الاحتجاج الصامت اية ثمرة؟ وهل فهم أحد انه احتجاج؟ نعم. فقد فهمه السيد كوينر . على أي شيء يحتج هذان السيدان اذن ؟ من الواضح ان احتجاجهما البعيد المدى موجه ضد الارهاب ، أما الاحتجاج الظاهر فهو على التسلط في الكلام . هنا يختلفان عن أوديسيوس . فلولا أناشيد هوميروس في ملحمته المشهورة لبقي أوديسيوس « لا أحد » مجهولا . أما السيد كوينر فلا يمكنه - في زمن البطش - أن يغني أو يتكلم أو يعلن شيئا ، حتى ولو كان هذا الشيء هو اسمه . ولذلك فقد أنكر هذا الاسم ، ولولا هذا الانكار لظل « لا أحد » . وأما السيد « أجه » فلولا الصمت الذي لجأ اليه لبقي هو أيضا « لا أحد » . كلاهما هرب من العدم الى العدم ، من ضياع طبيعي للاسم (أو قل للشخصية والذات في ظل الارهاب) الى ضياع مفروض للاسم . غير ان حيلتهما العاجزة تثبت قوتها ، واستسلامهما الصامت يثبت إنه هو السلاح الوحيد للمقاومة . لقد بين كلاهما اننا نعيش في عالم يهدد ذاتية الانسان بالتلاشي . ولذلك فليس عجيبا أن نجد براخت يوصي طوال حياته « بالتنكر » ، ويصف نفسه - لكثرة الاقنعة التي لبسها - في نوع من الاعتزاز بمكره فيقول « أيا كان الذي تبحثون عنه ، فإنا لست هو » ، وينصحنا في قصيدة مشهورة فيكرر القول : « أقول لك اخف الاثار » . ويصف المدن التي نعيش فيها اليوم بأنها كالادغال التي تموت فيها الفيلة . لهذا

— التتمة على الصفحة ٥٧ —

لا ...

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٣٨ ـ

✱✱✱

كله وجدنا الذات المهددة بالضياع في مركز أعماله الشعرية والمسرحية. فشخصية جالي جاي في مسرحية « رجل برجل » عنوان الانسان الذي يمكن في العصر الحديث أن يتشكل بالشكل الذي يراد له ، وسائقو الطائرة المحطمة في مسرحية « بادن » التعليمية عن التفاهم والقبول يتحتم عليهم التضحية بشخصياتهم في سبيل المجموع التاريخي الرهيب . وشن ـ تي ، انسانة ستشوان الطيبة والشريرة معا ، تتصارع فيها شخصية المحسنة الفقيرة والمستغلة الجشعة وتظل على هذا الصراع بين الفردية والمجموع حتى تصرخ في النهاية : لا بد من ايجاد حل ، والسيد شميت في مشهد المهرج المفزع في المسرحية التعليمية السابقة يتخلى عن أعضائه شيئا فشيئا ليحس بالسعادة حتى ينتهي به الامر الى التخلي عن رأسه ، كل هذه الشخصيات لا تحتج بالمعنى المألوف عن الاحتجاج . انها تخفي هذا الاحتجاج فتكون النتيجة أن تظهره ، وتخنق صوته فيرتفع أعلى مما كان ، وتحاول بكل قوتها أن تنكر ذاتها فتؤكدها . وسواء أكان براخت صادقا فيما دعا اليه صراحة في بعض مسرحياته التعليمية من سحق الفرد ليحيا المجموع ، والتضحية بالثائر لتبقى الثورة (لنلاحظ بهذه المناسبة انه عدل عن هذا الموقف البشع في مسرحياته المتأخرة وراح يبحث عن حل اخر كما فعل مثلا على لسان تشن ـ تي في مسرحية انسان ستشوان الطيب) ، فانه يشير الى نوع من الاحتجاج الاخرس الذي يخشى أن يكون هو الاحتجاج الوحيد الذي بقي للانسان في عصر التجمعات والمحاكمات ومعسكرات الاعتقال ، والملايين الصامتة المستسلمة في ظل نظام الفوضى التي نسميها بالفاشية والنازية . واذا كان السيد « ك » والسيد « اجه » لا يقولان « لا » واضحة عالية ، بل يبعدان عن نفسيهما شبهة الاحتجاج بكل وسيلة حتى ولو استدعى الامر أن يتخليا عن أسمائهما ، فان سكوتهما يظل عالي الصوت ، واستسلامهما يصبح هو السبيل الوحيد للمقاومة ، وامتناعهما عن قول « لا » يظل أقوى أثرا من كل صيحات المتمردين والغاضبين . ولا شك ان هذا الاحتجاج الصامت الساخر من كل احتجاج هو في حقيقته أقوى من كل احتجاج ! صحيح ان السيد « ك » والسيد « اجه » لم يحلا مشكلة « اللا آحاد » الكثيرين في هذا العصر ، ولكنهما قد أشارا اليها على أقل تقدير .

✱✱✱

اذا كان في احتجاج أوديسيوس و « السيد ك » جانب من السخرية الخفية بالبطش والادعاء والظلم والزيف الذي يرتدي رداء البطولة ، فان هناك أنواعا أخرى من السخرية والساخرين تستطيع أن تملأ قلوبنا بالبهجة وتضيء عقولنا بالمعرفة . ولسنا في حاجة الى البحث في الملاحم القديمة ولا التنقيب في آداب الامم القريبة لنجد آثار هذه السخرية المرحة . فهناك حكاياتهم التي تدور على ألسنة الشعب في الاسواق والطرقات ، وهناك مغامراتهم التي تتذكرها في كل مناسبة تدعو اليها . هناك جحا في حياتنا وهناك الاوبلن شبيجل ، او جحا الالمان ، ويكاد يكون لكل شعب جحاه الطيب الضاحك الزاهد في كل ادعاء او اصلاح ، القادر مع ذلك على تصحيح كل وضع مقلوب او شاذ . ✱

ولا يسمح المجال بالاضافة في الحديث عن هذين الاحمقين العاقلين ، ولا يصلح للكلام في فلسفة الضحك والمضحكين ، فذلك شيء يمكن أن يرجع فيه القارىء الى كتب كثيرة تعالج هذا الموضوع . ولكننا نلاحظ فحسب أن أسلوبهما هو أسلوب الاغراب الذي جعل منه برخت

✱) تل اوبلنشبيجل هو جحا الالمان ، والشخصية المرحة التي دون عنها الكتاب الشعبي المشهور في عام ١٤٧٨ وطبع لاول مرة باللغة الالمانية الفصحى في شتراسبورج سنة ١٥١٥ ، ثم طبع بعد ذلك وترجم الى مختلف اللغات وعالجه الكتاب والشعراء الى عصرنا الحاضر . وقد ولد في عائلة من عائلات الفلاحين في كنتيلنجن من اعمال براونشفيج (في مقاطعة زاكسن) ومات في سنة ١٣٥٠ في قرية مولن جنوبي مدينة لوبيك وما زال قبره هناك وقد كتبت على شاهده هذه الابيات العجيبة : «هذا الحجر لا يجوز لاحد ان يرفعه ، فهنا يرقد اوبلنشبيجل، في السنة المسيحية ١٣٥٠ » ، وكأنه يزهد في البعث لليوم الاخير ، بينما ينتظره بقية الاموات من عباد الله ! وتل هو مثال لشخصية العبيط الساخر المكار ، الذي راح في نوادره وحكاياته الحقيقية او المنسوبة اليه ينتقم للفلاحين المحتقرين من الطبقات البرجوازية ويؤكد انتصار الدهاء الريفي على ذكاء أهل المدن ، والبساطة والتواضع على التصنع والادعاء . ويطول بنا الامر لو حاولنا الاشارة الى حكاياته ومقالبه ودعاباته التي يسخر فيها من الغباء على اختلاف انواعه ، وكأنه يحمل في نفسه مرآة خفية ينعكس عليها كل ما يعشش في رأس المجتمع من بوم (ومن هنا كان اسمه الذي يمكن أن يفهم فهما حرفيا على انه مرآة البوم !) . ولكن نادرة واحدة قد تكفي لتبين الصلة التي تجمعه بشخصية جحا في أدبنا الشعبي ، كما تجمعه بكل اصحاب النوادر والخرافات والحكايات الساخرة على اختلاف البلدان والعصور ، وتكشف عن هذا الخليط العجيب من الذكاء والغفلة ، والحكمة والحماقة : فقد رحل أوبلنشبيجل مرة الى براغ ، وكانت المدينة تزدحم بعلماء العصور الوسطى المتأخرة ، فاضطر هو ايضا أن يخلع طاقيته المضحكة ليستبدل بها قلنسوة العلماء ورداء الدكاترة الاشد اضحاكا . وراح يطرح في كل مكان اسئلته المحيرة ، كما طفق اصدقاؤه يشيعون عنه انه يملك في اصبعه الصغير من الحكمة اكثر مما عند كلية الفلسفة بأجمعها ! وارسل اليه مدير الجامعة من يطلب اليه الحضور اليها ليجيب على اسئلة الدكاترة والماجستير . واشترط « تل » ان يطرحوا عليه أسئلة يستسيغها العقل السليم ، وان يريحوه من حكمة المدرسين ، وعلوم الوثنيين الاقدمين ، ومشاكل آباء الكنيسة . واجيب الى طلبه . وفي اليوم المحدد ازدحمت الجامعة بالعلماء والطلبة ، وجاء تل ومعه بعض اصحابه المرحين من المتسكعين والصعاليك وصغار العمال والتجار ، يحملون في ايديهم عصيا خشنة لمواجهة الظروف ! واستقبله المدير في حفاوة ووقار ، وأجلسه على منصة وسأله السؤال الاول : كم دلوا من الماء في البحر ؟ فأجاب تل : جففوا جميع الانهار التي تفيض من البرك والبحيرات ، وتصب في البحر من جميع الممالك ، واوقفوا المطر ، وعندئذ اقول لكم كم عدد الدلاء . » هلل اصحابه ، وسكت الدكاترة ، وعاد المدير يسأل : « كم يوما مضت منذ ان خلق آدم الى اليوم ؟ فقال تل على الفور : سبعة ايام يا اعزائي ، هي التي مضت بالتمام والكمال ، وحين لا يبقى من هذه شيء ، تتبعها سبعة أخرى ، وهكذا الامر منذ عهد آدم وسيستمر كذلك الى الابد . » وضحك الاصحاب ، وتململ الدكاترة لان مديرهم لم يفهم كيف يوقع الساخر المكار على الحديد الملتهب ! وبلغ المدير غضبه وقال لنفسه : الثالثة ثابتة وسأل : اين هو وسط العالم ؟ وسر الدكاترة للسؤال الماكر الدقيق وقالوا في انفسهم : هذا هو الفخ ! فلو قال انه في روما ، حيث يجلس البابا المقدس فسوف يغضب علماء الدنيا ، ولو قال انه في براغ حيث الجامعة العريقة لاغضب علماء الدين . واجاب تل : أن وسط الدنيا هنا ، في المكان الذي اقف فيه ، وان لم تصدقوا ، فقيسوه ان شئتم . صفق اصحاب تل ، وذهل العلماء والاساتذة ، وفكر المدير ان يطرح عليه سؤالا في الفلك ، بعد ان خيب ظنه في علوم الطبيعة والرياضة وطبقات الارض فسأله : ما هي المسافة من هنا الى السماء البعيدة ؟ وفكر تل قليلا ثم اجاب : « ان سماء ارضنا ، ليست بعيدة ابدا يا سادة يا كرام ، وهذا سأثبته لكم . اذا أردت الصعود الى السماء والوصول الى الملائكة المباركين ، فناد من

.... ←

وسيلة المعرفة التي تكشف عن مجتمع كل ما فيه غريب ومحتاج الى التغيير . فالمعرفة التي يعلمنا اياها جحا او الاوبلنشبيجل هي بدورها معرفة كاشفة ، وشخصيتهما تشترك مع شخصية الاحمق او المغفل في العصر القديم والوسيط الى يومنا هذا في كشف « العالم المقلوب » الذي نعيش فيه ، وهم جميعا يسلطون لسانهم السليط او نكتتهم اللاذعة عليه لانهم يرونه دائما عالما يقف على رأسه .

ولعل في شخصية سقراط الفيلسوف المبتسم المتواضع من ملامح شخصية الاحمقين المشهورين اكثر مما نوحي به كتابات افلاطون او اكسينوفون التي بقيت لنا عنه . ولعل هذا أيضا هو الذي دفع الكاتب الساخر ارسطوفان الى هجومه اللاذع عليه . فهو في مسرحية « السحب » يصوره حالما خياليا ويعلقه في سلة بين السماء والارض ويمتله صاحب مذهب صوفي خرافي ويجعله في النهاية يحرق مدرسته الفكرية . ومع ذلك فقد فشل هجوم ارسطوفان . ذلك لان سقراط لم يكن يحمل مذهبا بقدر ما كان يجسده . وهذا وحده هو الذي جعل اكثر الفلاسفة المتأخرين والعصور التالية ترفعه الى درجة التقديس . لقد كان ، كما قال عنه كيركجارد بحق ، سخرية خالصة . ولكن هذه السخرية لم تكن تشبه في شيء تلك النزعة التهكمية المرة التي يطلق عليها اسم « الكلبية zynismus - cynicism » . في كما يقول عنها كيركجارد ايضا ، « نفي مطلق لا متناه » ، يعبر به صاحبه عن سخط ابدي . ولكن هذا السخط يختلف عن خيبة الامل . فهو لا يصدر عن مرارة الفشل ، بل عن العلو فوق الاوضاع القائمة ، بغية نقدها وتغييرها والكشف عن تناقضاتها .

ومع ذلك فقد يكون من المبالغة أن نقول عن الاوبلن شبيجل أو عن جحا انهما ساخران بهذا المعنى . فكلاهما لا يزعم انه من أصحاب النفي المطلق اللامتناهي ، ولا انه بطل من أبطال الحرية . انه لا يلتزم بدعوة أو مذهب أو اصلاح ، بل يدخل نفسه في مآزق لا يستطيع أن يخرج منها ، لكي يكشف بذلك عن حرجها أو تناقضها . فهي حرية الكشف ، والتعريف ، وتسليط الاضواء .

هناك ، ايها المدير المبجل ، وسوف اسمعك من اسفل . » ولكن المدير لم يكن مستعدا للتجربة ، فسأله السؤال الميتافيزيقي الاخير : « كم يبلغ حجم السماء ؟ » فقال تل : « الطول الف متر ، والعرض الف متر ، والارتفاع مائة الف ذراع . فان كان بينكم من قاسها خيرا مني فليثبت انني كذاب ! » والقى المدير السلاح ، وسيق اولنشبيجل في موكب المنتصر الى الفندق الذي كان ينزل فيه ، غير انه آثر ان يواصل الرحلة في نفس الليلة ، خوفا من انتقام الطلبة الغاضبين .

وحكاية جحا مع الرهبان او العلماء مشهورة تكاد تتشابه في بعض تفاصيلها مع حكاية اوبلنشبيجل مع علماء جامعة براغ . فالراهب الاول يسأل جحا ـ امام سلطان الروم وكبار علمائها ـ عن وسط الدنيا فيشير جحا بعصاه الى حيث وضع حماره رجله اليمنى ويقول : هو في المكان الذي وضع فيه الحمار رجله اليمنى تماما . فاذا سألوه عن الدليل قال ان لم تصدقوني فعليكم بالكيل فان بدا لكم ما يخالف قولي من زيادة او نقصان فكذبوني . ثم قال الراهب الثاني وسأله : كم عدد النجوم ؟ فاجاب جحا على الفور : عدد شعر حماري . فسأله احد الرهبان من اين عرف ذلك فقال : ان لم تكن تصدق قولي فعدها ! فعاد الراهب يسأل : وهل يعد شعر الحمار ؟ فأجاب جحا : وهل تعد نجوم السماء ؟! وقام الراهب الثالث فسأل : كم شعرة في لحيتي هذه ؟ فلم يتردد جحا وقال : بقدر ما في ذنب حماري من الشعر . فسأل الراهب كيف يثبت ذلك فقال : بأن تنزع شعرة من لحيتك واخرى من ذنب الحمار فان اتفق المجموعان كان الحق معي والا فالحق معك .

ولم يملك الرهبان الا الضحك ، لا من اجوبة جحا فحسب ، بل كذلك من علمهم الجاهل العقيم ..

وقد عرفت الفلسفة اليونانية القديمة شخصية جذابة هي شخصية الفيلسوف ديوجينيس ، أو ديوجينيس الكلبي كما اشتهر اسمه ، ذلك المغفل الحكيم الذي راح في ضوء النهار يتجول في الاسواق حاملا مصباحا في يده ، باحثا عن انسان . لم يكن ديوجينيس بالطبع يجهل ان المصباح لا ضرورة له في وضح النهار ، ولا كان غبيا الى الحد الذي يجعله يبحث عن « انسان » لا وجود له . ولكنه اتبع أسلوبا في الاغراب يجعله أقرب الى « الاويلن شبيجل » أو الى جحا ، وان اختلف عنهما في ملامح كثيرة . فهو لم يكن يدعو الى حكمة « اللوجوس » التي كانت تلزم الجميع ، ولا كان يخضع للقوانين اليونانية التي آمن بها سقراط الى اخر لحظة من حياته كما ضحى من أجلها بهذه الحياة ، ولكنه كان ساخطا على طريقته . فهو يريد أن يقول للمدينة اليونانية (البوليس) انه يكشف لها حقيقتها ، ويقدم لها المرآة التي لا تحب أن ترى وجهها فيها . انه يعيش عيشة الكلب ، ويسير في الشوارع والاسواق حاملا مصباحه المشتعل في يده ، وكأنه يريد أن يقول لاهل المدينة : لست أنا الكلب ، بل أنتم جميعا الكلاب ! لا بل انني لا أزعم اني انسان ، وانما أبحث بينكم عن انسان ، أعرف سلفا انني لن أجده ! لذلك لم يكن هو الساخر الحر الذي نعنيه ، بل الباحث الذي خاب أمله في عالمه ، فراح يبحث عن شيء يعرف مقدما انه لن يعثر عليه . ان بحثه عن الانسان ليس بالبحث الحقيقي ، وانما هو أقرب الى محاولة يائسة يقوم بها رجل لم يجد ما يبحث عنه ولن يجده . ومن ثم قيل عنه بحق انه الفيلسوف الكلبي ، أو المتهكم الهازىء الذي لا يشارك مشاركة حقيقية في الفعل الذي يقوم به ، ولا يتوقع أن يصل من ورائه الى نتيجة ، بل يؤمن ايمانا مسبقا بأنه جهد عقيم لا جدوى منه .

في أي شيء يختلف هذا الكلب الحكيم عن الاحمق والمغفل ؟

قلنا ان الاول يتهكم من أجل التهكم ، ويصدر في سلوكه أو قوله عن مرارة وخيبة أمل في نفسه وفي العالم . أما الثاني فيسخر سخرية الساخط الحر ، وان لم يزعم لنفسه انه يقوم بدور المصلح أو الداعية . ذلك انه يحشر نفسه في مآزق محرجة ، ليبين لنا اننا نحن أيضا نعيش في مثل هذه المآزق . وهو لا يقسم العالم الى مخدوعين وخادعين ، وضحايا ومذنبين ، بل يسلم الضحايا الى قدرهم ، ويبين للمذنبين أيضا انهم ضحايا ومخدوعون . ففي كل مغامرة يقوم بها وفي كل حكاية من حكايات غفلته وعبطه يثبت لنا انه قد دخل في مأزق لن ينجو منه الا بصعوبة ، حتى ليخيل الينا انه يريد في كل حركة من حركاته أن يدمر نفسه . انه يتعذب ، ولكنه العذاب الذي يسبق كل معرفة حقة . ولذلك فهو اذا ضحك على ذقون الناس واضحكنا لم يتشف فيهم ولم يحاول أن يثبت انه يعرف خيرا منهم ، وانما يتجاهل أو يعترف بجهله لكي يفضح من يدعون المعرفة الحقة ، كما كان يفعل سقراط سواء بسواء . ولكنه لا يهتم بأن يثبت لنا جهل الغير ، ولا بأن يعلمنا شيئا لا نعلمه ، بل يكتفي بأن يظهر لنا كيف يتعذب من تعاليم الاخرين ، ويعبر بكلماته المقلوبة عن ألم ، لاحوال « العالم المقلوب » الذي يعيش فيه . انه يكشف لنا عن هذا العالم ، ويريها انه عالم يقف على رأسه ، ويدعونا ، بغير أن يقول حرفا ، الى أن نعيده الى وضعه الصحيح .

ان لغة جحا أو أوبلن شبيجل غالبا ما تكون لغة بسيطة تأخذ الكلمات مأخذا حرفيا ، ساذجا ، سليم النية . انه لا يلعب بالكلمات ولا يقلبها على وجوهها كما يفعل أصحاب النكتة والفشة ، بل يقصد معناها الطبيعي القريب ، فيكشف بذلك عن اساءة استخدامها على ألسنة الناس ، وبين كيف تساهم بدور أساسي في « قلب العالم » ومسخ كيانه . انها لغة لا تخدع نفسها بأوهام الخيال ولا تتباهى بحيل الفصاحة ، بل تبين ببساطة كيف تتعرض ـ وهي لغة الطبيعة والانسانية الاصيلة ـ للخطر والدمار وسط لغة جديدة يستخدمها الناس فيسيئون استخدامها ويبعدونها عن وظيفة اللغة الحقيقية . ان لغة هذا المغفل المسكين ، مثل شخصه ، يعكسان نموذجا للانسان الذي يبدو لنا

سجينا مجبورا وسط عالم « حر » بينما النظرة الدقيقة تكشف عن انه هو الحر حقا وسط عالم يعيش سجين لغته وحيله وشطارته . هذا العالم المقلوب على رأسه لا يدعي الاحمق الحكيم انه يعيده الى الوضع الصحيح ، بل يكتفي باظهار آله لحاله وعجزه عن اصلاحه . ومع ذلك فلم يكن جحا ولا أوبلن شبيجل بالعجز الذي يصورانه لنا ، بل ان كليهما ساخر مكار ، ترسم حكاياته وخرافاته عالما أصيلا عريق القدم نحس بالحنين اليه ، كما نحس بالالم لاننا انفصلنا عنه . ان كليهما يبحث عن الحقيقة بالمعنى الاصيل لهذه الكلمة ، أو هو صديق للانسان بكل ما في هذه الكلمة من دفء ونبل واخلاص .

***

في كل يوم نسأل أنفسنا كما نسأل غيرنا : ماذا ؟ لماذا ؟ اين ؟ والى متى ؟ وكل سؤال من هذه الاسئلة يعبر على نحو من الانحاء عن عدم الوجود فنحن نقف أمام شيء غريب علينا ، مختلف عنا ، لا ندري شيئا عن أصله وسببه ، وقد لا نعرف شيئا عن مكانه وموضعه . ولكننا حين نسأل هذا السؤال معبرين عن غربته عنا نحس بأن هذه الغربة تعود فتشملنا . فنحن أيضا غرباء وضائعون . مكاننا في العالم ليس مكاننا ، والنور الذي يحيط بنا لا يضيء في عتمة المصير . أننا سنموت حتما . وسؤالنا عن الشيء الغريب يجعلنا نتعاطف معه ، فهو الشيء الاخر بالنسبة لنا ، كما اننا الاخر بالنسبة له . وفي كل سؤال نسأله عنه نوع من التضامن معه ، لاننا نفتقده ونتأسى لما يصيبه . وكل سؤال يعبر عن نوع من الانفصال في الوجود . ولكنه يعبر كذلك عن شوق الى الاتحاد بما نسأل عنه . ذلك لاننا لا ننفصل عنه تمام الانفصال ـ والا ما أمكننا أن نسأل عنه ـ وان كنا لا نستطيع مع ذلك أن نتحد به تمام الاتحاد . وحين نصوغ سؤالنا في شكل كلام فانما نقول للانفصال « لا » ، بل ان كل كلمة نقولها تعبر بنفسها عن نوع من الاتحاد بالوجود ونوع من الاحتجاج على الانفصال عنه ، أي على عدم الوجود . ذلك لاننا لا نتحد أبدا مع أنفسنا ، ولا مع الاخرين ، ولا مع جانب من جوانب الوجود أو الوجود كله . فنحن « في » الوجود كما اننا كذلك في مواجهته . وحين نتحدث عن طريق الكلمة أو الحركة فاننا نقيم جسرا الى الوجود، لنصل اليه ، ونتحد به . ومن هنا كانت كل صورة من صور الكلام في نفس الوقت صورة من صور الوجود . لانها لا تصوغ قطعة من الواقع ، بل تجسم الوجود كله . فلغتنا اذن لا تنفصل ابدا عن الوجود ، ولكنها تعبر على الدوام عن انفصال عنه . فالذي يستطيع أن يتكلم ، والذي يستطيع أن يصمت ، كلاهما يعبر عن نوع من الانفصال عن الوجود ، وجهد للتغلب عليه . ذلك لان اللغة في جوهرها هي قول « لا » لعدم الوجود .

صعوبة قول « لا » هي صعوبة أن نقول لعدم الوجود « لا » . ذلك هو التعريف الاولي لها . ولكن ما هو عدم الوجود ؟ هل يجوز لنا أن نتحدث عنه ؟ وما دمنا نتحدث عنه ، أليس معنى هذا انه موجود ؟ سيقول بارمنيدز « لا » لانه لا وجود له ، ولكن اذا صح انه لا وجود له فلم يقول « لا » ؟ أو بمعنى اخر كيف يستطيع أن يقول « لا » ؟ أليس في كل قول « لا » عدم وجود ؟ ألا تشهد قول « لا » بقوة عدم الوجود ؟

هناك موقف واحد لا نستطيع فيه أن نشك في عدم الوجود . ذلك هو موقف الموت (وهو غير البحث عن الموت أو السعي اليه ، فذلك هو اليأس) . ولكن ماذا يبحث الباحث عن الموت ؟ عن النهاية ؟ وما هي النهاية ؟ أهي الحد الاخير أم نهاية كل الحدود ؟ أهي التحرر من الجبر ؟ ولكن من أي جبر ؟ أهي عدم الحرية أم الحرية التي لا حد لها ؟

كل كلمة نقولها تجسم عالما . فحيث لا تكون هناك أجسام ، أو حيث تكون الاجسام قد استقرت معانيها مرة واحدة والى الابد ، فهي لا تجسم شيئا . وكلمة الوجود أو كلمة عدم الوجود تجسم كل منهما عالما . ولذلك فهما مزدوجا المعنى . ولذلك أيضا نحاول أن نحدد معناهما في كل ما نقوله ونتفق به من الكلام . ولكننا لا ننجح في هذا . وما السبب ؟ ألان العالم مزيج من الوجود وعدم الوجود ؟ أم لأن كل جسم ـ حتى ولو كان لكلمتي الوجود وعدم الوجود ـ فهو غير حقيقي ؟ لنقل ان « اللا » التي ننطق بها موجهة الى عدم الوجود . ولكن ماذا نقصد بهذا ؟ هل نوجهها له لانه الشيء الاخر المخالف للوجود ؟ ليس هذا هو السبب . بل لان عدم الوجود هو التجسيم غير الحقيقي ولا المقنع ولا الكافي للوجود . وذلك هو معنى احتجاجنا حين نقول « لا » فنعكس الصراع الذي نحس به في أنفسنا بين الحقيقة والخطأ ، والكمال والنقص ، والامل واليأس . لان في كل « لا » نقولها احتجاجا على الجانب السلبي من الوجود ، وتمردا على الانتقاص منه أو الجور عليه أو التفريط فيه .

ولقد قلنا من قبل ان الصمت من أبشع الاخطار التي نتعرض لها في العصر الذي نعيش فيه .

وصمت الصامت يكون في بدايته نوعا من الاحتجاج على لغو عقيم لا ينقطع من أفواه الاخرين . انه في هذه الحالة قد يكون صمتا مثمرا، وتعبيرا عن كبرياء تأبى مسايرة الانحطاط ، وترفع عن الخضوع للضعف ، ورفض الواحد الذي يفكر لنفسه وبنفسه الضياع بين الملايين التي تريد أن تفكر له أو تصنع به ما تشاء . ويتطور الامر فتوشك اللغة التي يتكلم بها « الناس » أن تصبح شيئا مرفوضا . ومع الزمن يرفض الصامت هذا العالم الذي خلقته اللغة وخلقت له ، ويتجه بكيانه الى عالم آخر مسحور يتصور انه في غير حاجه الى لغة . ويبعد في غربته فلا يكتفي بأن يرفض الكلام لانه خطر عليه ، بل يرفض كذلك الصمت الذي يعده الوجه الاخر للكلام . حتى يصل أو يخيل اليه انه وصل الى حال من الرضا والسعادة التي قد نسميها حالا صوفية ، وان كان من المنطقي ألا نسميها بشيء لانها ليست مما تسميه الاسماء . وقد نختلف فنسمي ذلك زهدا أو تصوفا أو وجدا ، ولكننا لا نختلف في انه حال أشبه بالحياة في النعيم أو الفردوس، وانه بجميع درجاته مصحوب بنوع من عدم الاكتراث ، وان أقصى قممه هي حال التلاشي والفناء التي يتحدث عنها البوذيون بوجه خاص .

مهما يكن الامر ـ وبلا خوض في الحلول التي يقدمها الزهد والتصوف لعبثية العالم وذلك بالفناء فيما ليس بعالم ولا في جدوى هذه الحلول ـ مهما يكن الامر فلا يخفى على القارىء ان الهروب من العجز عن الكلام بمعناه الحق حين تبتذل اللغة الى الامتناع الكامل عن الكلام (سواء أكان عن رفض أو يأس أو بحث عن طريق اخر للخلاص) لا يمكن أن يكون بديلا عن اللغة ، ولا يمكن أن يحل مشكلة الموقف الانساني المعين بتجاوزه الى ما وراء « اللا » و « النعم » جميعا . ذلك ان في الصمت الحقيقي ، أي البشري ، نصيبا دائما من الاحتجاج ، وفي السكوت المهيب رن دائما صدى « ألا » . وهذا الصمت مهما طال لا بد أن يكون قادرا في لحظة معينة وموقف معين على أن يخرج عن صمته ويتحول الى كلام يرفض أو يؤكد . والا أصبح هذا الصمت الذي كان في بدايته احتجاجا على امتهان اللغة أو اتقاء لضياع الذات نوعا من التمزق والتدمير والانتحار ، يستر الضعف والفرار ، كما يحاول أن يخفي الترجسية والاعجاب الزائد بالذات . فكما انتهت رغبة نارسيس ـ بطل الاسطورة اليونانية الذي راح يتأمل باعجاب وجهه الجميل في صفحة النهر حتى غرق فيه ! ـ في الاتحاد مع نفسه الى الموت ، فان المنتحر يرجو كذلك بالموت أن يتحد مع نفسه . فالنفس الفارغة الضائعة تحاول عن طريق الموت أن تعود الى نفسها التي لم تجدها ، وتتحد بالكل الذي عذبها الانفصال عنه . ومن العجيب حقا أن المدمر لنفسه ـ أو المنتحر ـ الذي كان احتجاجه على « عدم الوجود » في صورة من صوره دافعا له على الاقدام على الانتحار ، هو نفسه الذي يندفع الى العدم ويقول له « نعم » . وبدلا من أن يصمد للحياة ويقاوم ويقول « لا » لكل ما يدمر نفسه ، نجده يقاوم هذه النفس لآخر مرة لكي يلقي بها بين أحضان « اللا »

المطلقة أو العدم المطلق . ومن الواضح أن المدمر لنفسه يتحرك بغير أن يتحرك ، أعني انه يبحث عن المنبع والاصل على الدرب الخاطىء . في حين ان المنبع الحقيقي تقود اليه « نعم » كبيرة ، سواء تصورنا ان هذا المنبع هو الاله في السماء أو الحق أو الجمال أو كرامة الانسان . المنتحر يبحث عن شيء فيندفع الى لجة اللاشيء ، وكذلك تفعل الانسانية كلها حين تلقي بنفسها في لجة حرب عالمية يدفعها اليها في الحقيقة ـ كما تبين تحليلات فرويد ـ دافع الموت وتدمير الذات . ولعل هذا الشوق الفاشل الى المنبع الحق هو علة القلق واليأس الذي نقول اليوم أنه طابع العصر ، ونتعرف على اثاره فيما نقرأ من أدب أو فن أو فلسفة بل فيما نعانيه من تجارب الحياة كل يوم . ومن ثم تصبح مشكلة العصر هي كيف نوازن بين كفتي القلق والشجاعة ؟ كيف نجد القوة على تأكيد وجودنا المتناهي على الرغم من تهديد الموت والفناء ؟ وبعبارة واحدة : كيف نقول « لا » « لعدم الوجود » على اختلاف صوره الواقعية والانطولوجية (الوجودية) ؟

هنا تصبح مسألة التغلب على القلق بالشجاعة ، وعلى التطرف بالاعتدال ، وعلى اللامعنى بالمعنى ، مسألة المسائل في الزمن الحديث. ولن يجدينا هنا أن نطيل الوقوف عند تحليلات القلق واليأس التي نزخر بها الكتابات المعاصرة ، فالمشكلة التي تشغل الجميع ، من مفكرين وعمليين ، هي البحث عن قيمة في الاشكال العقلية والحضارية التي فقدت قيمتها ، أو الاهتداء الى أشكال جديدة تتجسد فيها قيم جديدة . ولن يكون الحل في تجاهل القلق من العدم أو تناسي العبث واللامعنى أو انكار الامل في كل القلوب ـ فكلها حقائق رهيبة في عصرنا ـ بل يكون الحل في تقبلها ومحاولة البحث عن قيمة توازنها . وليس أخطر على الانسان الحديث من أن يستسلم لها ويقول « نعم » ، لان ذلك معناه أن يفقد ذاته ، ويدمر نفسه ، ويهرب الى نعيم الصمت الشقي . هذا البحث عن التوازن هو الواجب الاكبر لانسان اليوم . ذلك لان القيمة التي تجسد له هذا التوازن ليست قيمة أبدية صالحة لكل مكان وزمان ، وانما هي مثل أعلى عليه أن يبحث عنه بحثا متجددا على الدوام ، ويخلقه في كل تجربة أو موقف جديد . انه تجسيد لعقيدته وسعادته وراحة قلبه ، وهدف لاشواقه وآماله وأحلامه . ولن تنقطع مغامرته في البحث عنه والسعي اليه ، ما دامت تحدوه الرغبة في التحرر من خيبة الامل واليأس والفراغ .

***

« لا » هي صيغة الاحتجاج .

وقول « لا » أصبح اليوم مهمة الفيلسوف الاولى .

أما قول « لا » فقد تبينا بما فيه الكفاية أن وظيفته الاساسية هي الاحتجاج . وأما الفيلسوف فلسنا في حاجة الى تعريفات قديمة أو حديثة نبالغ في شأنه حتى يصبح أسطورة حية ، أو نضع منه حتى ليوشك أن يكون واحدا من البلهاء الذين قد يتسع صدرنا لسماعه ولكننا لا نتردد في طرده والتخلص منه . انما الفيلسوف هنا اسم للانسان الذي « ينصرف الى الكل » ويدخل كل مجالات الواقع ليبدي رأيه الحر فيها ، دون أن يغلق الباب وراءه أو يتقيد بواحدة منها . واذا كان من حقه ان يتكلم عن كل شيء ، فهو حق من يسأل على الدوام ، أعني من يملك في نفس الوقت حرية قول « لا » ، حرية الاحتجاج . فهو في عصرنا اذا احتج على مشكلة العصر كله ، وأعني بها تشييء الانسان واهدار ذاتيته وجعله موضوعا يمكن أن يصنع به ما يراد له ، وتمزيق العالم بما يبعده ويبعد أعظم وأتعس سكانه (الانسان) عن الوحدة السعيدة ، وعن منبع الوجود الأول ـ اذا احتج على هذا كله فهو لا يحتج باسمه فحسب ، ولكنه يحتج على الخيانة التي ترتكب باسم الانسان ، كما يحتج كذلك باسم الظالمين والمظلومين ، والجلادين والضحايا ، لانه احتجاج ينصرف كما قلت الى « الكل » ولا يتقيد بدائرة أو مجال محدود . ولانه احتجاج يحاول أن ينفذ الى قلب الجميع ، لانه يقصد النموذج الانساني الاسمى في الجميع . ولكن على أي شيء يحتج ؟ ولمن يوجه هذا الاحتجاج ؟ وأين هي حدوده التي تجعله تمردا مثمرا لا صراخا أجوف ؟ ليس من العسير الان أن نتبين انه احتجاج من يقول « لا » لكي يؤكد «النعم» ، وسخط من يؤذيه « عدم الوجود » الذي يوشك أن ينفذ الى كل مجال ظاهر أو باطن في الحياة من أجل وجود سعيد كامل متحد مع نفسه . انه صرخة « اللا » التي لا تضيع في صحراء ، بل تحاول ان تلفت الاذان الى صوت المثل الاعلى ، وتوجه الانظار الى قيمة تتجسد فيها كرامة الانسان وحقه العادل المشروع في السعادة والامان . هو اذن احتجاج على الاخطار الثلاثة التي قلنا انها من أبشع الاخطار التي تواجهنا في العصر الذي نعيش فيه ، وهي ضياع الذات ، وتدمير النفس ، والصمت المفروض على الملايين . احتجاج يواجه هذه الاخطار بالامل والشجاعة ، فيقول « لا » ، ويعمل على تأكيد الذات ، وتكريم النفس ، وتحويل الكلام الى حوار حقيقي بين البشر فيقول « نعم » .

حاشية : كتبت هذه السطور قبل النكبة الاخيرة باربعة عشر شهرا . وأسأل نفسي اليوم : علام أحتج ، وكيف ؟ فلا يكون غير جواب واحد : على عدو يحتل أرض وطني الاكبر ، وبسلاح وحيد لا سلاح سواه .

لم يعد امام المفكر والكاتب الا أن يلقي بالقلم ويمسك بالمدفع والبندقية . فان مات كان موته أصدق كلمة يكتبها ، وان بقي حيا استطاع أن يكتب شيئا ينفع الناس .

القاهرة — **عبد الغفار مكاوي**

انتظروا منشورات

دار المصراتي

مؤسسة ثقافية

للطباعة والنشر والتوزيع

طرابلس الغرب ـ ليبيا

شارع جدة المتفرع من شارع الاستقلال

رقم ١٠ ـ ص. ب ٢٥٠٠